

القرماطيون

ظهر هذا الاسم في المصادر العربية ، لأول مرة فيما نعلم ، في أخبار ثورة الزنج التي قامت في البصرة وهددت كيان الدولة العباسية ما يقرب من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ / ٨٦٩ - ٨٨٣ م) (١) .

ولعل أكثر الذين اشتركوا في هذه الثورة كانوا من الذين نزحوا من البلاد الأفريقية ، ولا سيما بلاد الزنج (أي السومال) ، واستخدمهم ملاك الأرض في إزالة الطبقة الملحية - السبخ - التي تغطي الأراضي في سهول البصرة ، وكشف التربة الصالحة للزراعة ، ونقل السبخ وجعله في أكوام أو تلال للافادة منه في الوقت نفسه (٢) .

كان من بين هؤلاء الإفريقيين زنج سوماليون كما قلنا ، ولعلهم كانوا أكثر عدداً لقرب بلادهم من العراق وسهولة النزوح إليه ، وكان منهم النوبة الذين انتقلوا من السودان وادي النيل ، وكان منهم «القرماطيون» ، وهم - كما سنرى - جنس من أجناس السودان الغربي .

اشتهر من القرماطيين في هذه الثورة «راشد القرماطي» وابع فيها دوراً هاماً (٣) .

(١) أهم ما كتب عن ثورة الزنج :

أ - تاريخ الطبري - ١١ (ط الحسينية بمصر)

ب - Noldeke, Sbtches From Eastern Hist. (Lordon 1892)

ج - عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة (ط بغداد ١٩٤٥)

ص ٧٥ - ١٠٥

د - ثورة الزنج لفصيل السامر (ط بغداد ١٩٥٤)

(٢) فيصل السامر ص ٢٣ ، دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مجلد ١٠ (زنج) .

(٣) تاريخ الطبري ١١ / ١٧٤ .

ذكر المسعودى أن أول من صنف في أخبار ثورة الزنج في العراق محمد بن الحسن بن سهل المتوفى حوالى ٢٨٥ هـ^(١) . ولا نعرف عن هذا الكتاب إلا ما نقله عنه ابن جرير الطبرى فى تاريخه (مثلاً ج ١١ ص ١٩٠) . ولم يحفظ لنا الزمن وصفاً معاصراً كاملاً لثورة الزنج إلا ما أورده ابن جرير الطبرى فى تاريخه (ولد الطبرى ٢٢٤ هـ وتوفى ٣١٠ هـ) .

لهذا يعد تاريخ الطبرى من أقدم المصادر التى روت أخبار هذه الثورة ودور القرماطيين فيها . ولا بد أن يكون الطبرى قد عاصر أحداث هذه الثورة وشهد بعضها على الأقل .

ومن بعده أشار المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) إلى « القرماطى » من بين الشعوب السودانية التى أمعنت فى المغرب وذكر أن لهم ملكاً ودار مملكة^(٢) .

وهناك كاتب عربى آخر ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو المقدس ، أورد فى كتابه « أحسن التقاسيم » (كتبه حوالى ٣٨٥ هـ / ٩٨٥ م) تعريفاً سريعاً موجزاً بالقرماطيين ، فوصفهم بأنهم جنس من أجناس السودان الكثيرة التى تتاخم أرضهم بلاد المغرب ومصر من قبل الجنوب ، وأنهم يتعاملون بالملح ، والنوبة والحبشة بالثياب^(٣) .

وفى عدا هذه المصادر لا نكاد نجد من كتاب العرب من أضاف شيئاً جديداً إلى الإشارات القليلة التى وردت فيها . وهذا أمر يسترعى انتباهنا ، ويدعونا إلى أن نتساءل عن حقيقة هذا الاسم ، وكيف نعلم سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن أخبار هذه الجماعة وتاريخها ؟

(١) مروج الذهب (نشر محيى الدين عبد الحميد) ١٩٥/٤ .
(٢) مروج الذهب (ط مصر نشر محيى الدين عبد الحميد) ج ٢ ص ٢٠ (القرماطى صوابها القرماطى) .
(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

أما التعرف على حقيقة هذه التسمية ، فالسبيل إليه أحد احتمالين : فإما أن يكون لفظ القرماطيين قد أطلق على هذه الجماعة بعد انتقالهم إلى العراق ، كأن يكون مشتقاً من لهجة أو مصطلح عراقي ، فهو في هذه الحالة ليس مكتسباً من موطنهم الإفريقي الأول . وإما أن يكون هذا الإسم — من مادته الأصلية — علماً معروفاً على شعب قديم من شعوب السودان الغربي حملوه معهم من موطنهم الإفريقي .

وإذا كان من اليسير أن نرد بعض الأسماء التي أطلقت على زنوج البصرة إلى مصطلحات محلية نشأت في العراق ، مثل قولهم : الفراتية ، وهم الزنوج الذين سكنوا منطقة فرات البصرة ، والشورجية ، وهم الزنوج الذين عملوا في إرالة الشورج ، وهو الزبد الملحي الذي كانت تجلبه المياه إلى أرض العراق الأدنى ثم تنحسر عنها — فليس من اليسير أن نرد كلمة مثل « القرماطيين » إلى اصطلاح عراقي . ولا أظن أن الأستاذ ماسينيون قد أدرك وجه الصواب فيما أورده في مقالته : الزنج والقرامطة^(١) من ربط مصطنع بين لفظي القرامطة والقرمطين . ويقول في مقاله الثانية (والأكثر احتمالاً أن يكون لفظ القرامطة مأخوذاً من لهجة « واسط » الآرامية المحلية إذ ورد فيها لفظ (قرمطا) ومعناه المدلس . وقبل أن تقوم حركة القرامطة بسنوات ، أي منذ سنة ٨٢٥٥ / ٨٦٨ م ، ظهرت في هذه المنطقة ذاتها ، فرقة تسمى « القرماطية » إلى جانب فرقة الفراتية ، وكانت من بين فرق الجند المحاربة في ثورة الزنج .

فالواقع أن محاولة الربط بين هذين اللفظين هي خلط بين جماعتين وحركتين ، مبنى على مجرد التشابه اللفظي . وإذا جاز أن يكون لفظ القرامطة مشتقاً من لهجة محلية ، على اعتبار أن معظم أفرادهم كانوا من العرب والأنباط الذين رسخت

(١) الأولى في دائرة المعارف الإسلام (مجلد ١٠ - الترجمة العربية) والثانية في Shorter Eneye of Islam (Karmitians)

أصولهم في البيئـة العراقيـة وما جاورها من عهود بعيدة ، فإنه من المستبعد أن يكون لفظ القرماطيين من نفس الاشتقاق ، ولا سيما إذا عرفنا أن حركة الزنج قد اختلفت إلى حد كبير ، في زمانها ووسائلها وطبيعتها عن حركة القرامطة ، وأن الوصف الذي أورده كل من المسعودي والمقدسي عن القرماطيين قد أكد أنهم جنس كسائر أجناس السودان ، ولم يشر أي منهما إلى صلتهم بالبيئـة العراقيـة ، ولا لاثورة الزنج في العراق . وكلاّ منهما — على اقتضابه — يدل على أنهم جنس معين في إفريقية ، لهم طريقة في التعامل (في موطنهم الإفريقي طبعاً) تختلف عن طريقة النوبة والحبشة ولهم ملك ودار مملكة . فالأرجح أن يكون إسمهم مكتسباً من موطنهم الأصلي في إفريقية ، وأن يكونوا قد حملوه إلى العراق ، كما حمل الزنج والنوبة إسميهما من إفريقية واحتفظوا بهما في المهجر العراقي وغيره من المهاجر .

وهنا نقف عند السؤال الثاني : كيف نعمل سكوت معظم المؤرخين والجغرافيين العرب عن التعريف الكافي بهذا الشعب وتاريخه في موطنه الأفريقي ، على الرغم مما نعرفه من حرص هؤلاء وأولئك على تدوين كل ما انتهى إليهم عن شعوب السودان وممالكهم وأخبارهم ؟

والواقع أن الشعوب التي عرفها العرب في منطقة السودان الغربي وتحدثوا عنها حديثاً مفصلاً ، هي الشعوب التي برزت في صورة ممالك أو سلطنات إسلامية واستمرت علاقاتها بالعالم الإسلامي زماناً غير قصير . ولا ريب في أن أكثر شعوب السودان الغربي قد أبرزها النشاط الإسلامي والنشاط التجاري متضافرين في تلك العصور ، فلمت أسماؤها في ميادين الحرب والسياسة والتجارة والدعوة إلى الإسلام ، وظفرت بنصيب غير قليل مما كتبه العرب .

ولم يكن القرماطيون — على ما يظهر — من جملة هذه الكثرة الغالبة من شعوب السودان الغربي التي لُمت أسماؤها ، ولم يتح لهم في بلادهم — في العصور

الإسلامية — ما أتيج لإخوانهم من فرص التفوق في أى مجال من المجالات
المشار إليها . ومن أجل هذا — فيما نرجح — أغفل المؤرخون العرب ذكرهم إلا
في القليل النادر .

وإذا أردنا أن نبحث عن مثال من تلك الشعوب القليلة التي ضعف شأنها
بانتشار الإسلام في المنطقة الواقعة جنوبى بلاد المغرب ، فإن لدينا حالة معينة
ذكرها الإدريسي في كتابه « نزهة المشتاق » ، وهى حالة أهل « ودان » إذ
يقول (١) : « وأما أرض ودان فإنها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى
ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة ، وكان الملك فى أهلها
ناشئاً متوارثاً ، إلى أن جاء دين الإسلام ، فخافوا من المسلمين ، فتوغلوا هرباً
فى بلاد الصحراء فتفرقوا ، ولم يبق بها الآن إلا مدينة « دواد » (٢) وهى الآن
(أى فى القرن السادس الهجرى) خراب ليس بها إلا بقايا قوم من السودان
معايشهم كدرة وأمورهم نكدة .

ولعل هذا النص يعبر عن جزء من حادث كان أوسع مجالاً مما ذكره
الإدريسي . فلم تكن أرض ودان — فى حقيقة الأمر — إلا مركزاً واقعاً
فى طريق تجارى طويل عامر بسكانه ، أهم مرا كزه : فزان — جرمه — ودان .
وكان هذا الطريق مزدهراً منذ عصور قديمة ، قبل الإسلام ، وظل كذلك ، إلى
أن تفرق أهله بسبب الغزوات الإسلامية من جهة ، واشتداد العواصف الرملية
وعجزهم عن مقاومتها من جهة أخرى ، مما حدا بالتجار إلى التحول عنه إلى طريق
آخر هو : طريق سجلماسة — أودغشت — منحنى النيجر .

عاش على ذلك الطريق التجارى (طريق فزان . جرمه . ودان) ، منذ

(١) وصف أفريقيا الشمالية (قطعة من نزهة المشتاق للإدريسي) تحقيق بريس
(ط الجزائر ١٩٥٧) ص ٢٣ .

(١) قرأها بالمر (The Bornu, Sahara & Sudan 1936) (واو) وربما
سمتها (ودان) .

عصور ما قبل الميلاد ، شعب سماهم اليونان الجرمانت Garamantes ، ازدهروا في زمان المؤرخ هيرودوت (حوالي ٥٠٠ ق م) وامتدت مساكنهم على طول ذلك الطريق . وفي جنوب فزان تقع منطقة جرمه Garama التي نسبوا إليها ، وهي مركزهم الأول ، وفيه استقرت جماعات منهم ، ونالت نصيباً من الحصار ، وامتصت قدرأً صالحاً من الثقافة المصرية أو الليبية القديمة ، واستخدمت مركبات الخيل . ومنهم من امتدت مساكنهم إلى داخل الواحات الواقعة غربى مصر . فإذا اتجهنا إلى المراكز الجنوبية من هذا الطريق ، وجدنا فريقاً من الجرمانتين قد ضربوا خيامهم في الصحارى الجنوبية ، بعيداً عن مركزهم الأول « جرمه » ، وبلغت مساكنهم واحة العوينات . ومنهم جماعات أقاموا في المنطقة التي سميت فيما بعد « بلاد الكانم » ، وفي تيبستي (١) .

ويتضح من هذا كله أن الجرمانتين كانوا قاعين على مراكز هذا الطريق ، وما تفرع منها إلى الشرق . وظلوا كذلك في خلال عصور ما بعد الميلاد ، إسماعلاً مما يجد عناية المؤرخين من اليونان والرومان ، ويمتلك قدرأً كبيراً من السيطرة والنفوذ .

ثم هجر التجار هذا الطريق في العصور الإسلامية الأولى للأسباب التي ذكرنا ، وتفرق أهله ، وتقطعت الوشائج بين جماعات الجرمانتين ، واتمس بعضهم سبيل الهجرة إلى مناطق أخرى ، وصارت كل فئة وقد اختلطت بعناصر حامية وزنجية مختلفة على حسب مؤثرات البيئات التي عاشوا فيها أو انتقلوا إليها ، وعرفت فئات منهم بإسم خاص غير الإسم القديم المشترك . فهؤلاء الذين عاشوا في تيبستي وما حولها كانوا هم النواة التي كونت جماعة « التبو » . ولعل هذه الجماعة نفسها هي التي عرفت في شمالي دارفور بإسم الجروان أو القرعان . ولا تزال بقاياهم تؤلف جزءاً من سكان دارفور في الوقت الحاضر .

(١) بالدرص ٤ ، ٨٤ ، ١٧ هامش .

أما الإسم القديم المشترك ، وهو الجرمانتيون ، فلا يطلق في الوقت الحاضر على أية جماعة من هذه الشعوب التي تسكن إفريقيا . فقد عني عليه الزمن ، واندرج في طي النسيان على مر العصور .

على أنه من المستغرب أن يختفى إسم الجرمانتيين دفعة واحدة حتى من المصادر العربية المبكرة ، ولا سيما إذا عرفنا أن العرب المسلمين لا بد أنهم أدركوا فترة ما من قوة هذا الشعب ، قبل أن يصل إلى حضيض الوهن والضعف والتفريق . بل لقد عرف الفاتحون الأولون من العرب المسلمين ، مدينة « جرمة » مركز الجرمانتيين الأول ، فعندما قدم عقبة بن نافع « ودان » وافتتحها سأل أهلها هل من ورائكم أحد ؟ فقبل له : جرمة وهي مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليالٍ من ودان ، فدعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا (١) .

وقد يزول هذا الأمر المستغرب ، إذا اتهمينا إلى احتمال أن يكون بعض كتاب العرب الأوائل ، ممن نقل عنهم الطبرى والمقدسى والمسعودى قد عرفوا هذا الإسم القديم المشترك ، وذكروه في كتبهم في صيغة « القرماطيين » وما أشبه أن يكون تعريفاً للفظ الجرمانتيين .

من المحتمل أن يكون الفاتحون من العرب الأوائل عرفوا هذه الجماعة بإسمها عندما غزوا جرمة وودان ، وربما حملوا معهم أسرى منهم إلى البلاد الإسلامية .

فإذا صح هذا أمكن القول بأن فئات من الجرمانت كانوا من جملة الجماعات التي انتقلت من أفريقيا إلى العراق في تجارة الرقيق أو غيرها ، في عصور الإسلام المبكرة ، قبل أن يعنى الزمن على إسمهم القديم المشترك ثم ظهروا في ثورة الزنج في القرن الثالث الهجرى وكان لهم دور في هذه الثورة .

(١) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (تحقيق عبد المنعم عامر) ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ - وأنظر (جرمة) في معجم البلدان ليا قوت .

أما القرماطيون (الجرمانت) في موطنهم الأصلي ، في أفريقيا ، فمن المحتمل أن سلطنتهم قد استمر - كما قد يفهم من كلام المسعودي - إلى القرن الرابع الهجري ، ولعله لم يستمر كثيراً بعد زمن المسعودي . لعله كان آخذاً في الضعف والانحلال ، مع انقضاء القرن الرابع الهجري .

وعندما أخذ مؤرخو القرون التالية ، « القرن الخامس وما يليه » ، يسجلون شعوب السودان الغربي وممالكهم ، لم يكن للجرمانت أو القرماطيين شأن ولا سلطان في بلادهم فأغفلوا ذكرهم .

عبد المجيد عابدين